دمعة
في بحر لُجّي

دمعة في بحر لُجّي

أماني صلاح البني

٢٠١٦

إهداء و... شكر

❖ إلى وطني الذي وهبني من شذا ياسمينه أملاً رغم الألم.

❖ إلى كل من آمن بموهبتي وأخذ بيدي وأرشدني.

❖ إلى أبي وأمي ، إخوتي وأصدقائي.

مُقَدِّمَة

دمعة في بحر لجي...

دمعة لم يثيرها الحزن بقدر ماأثارها الألم...

دمعة مزجت ملوحة الأسى وحلاوة الأمل...

دمعة تنبض بالدمع العجيب إلى غير أجل...

دمعة من عين براءة سقطت في بحر لجي فأضاءت لمداد الكلمات الغريقة سبيل الحياة...

❖ ❖ ❖

إني علمت أمراً عجباً...

أن العين ليست وحدها التي تدمع...

فالحبر قد يدمع ، ويسكب رؤياه على ورق رقيق فيدمع.

والقلم قد يدمع ، ويأنّ بكل ما فيه على الصحف فتدمع.

والسطر قد يدمع، ويحوي رغم ثقل حمله كلمات تحارب ألا تدمع.

والقلب والروح قد تدمع.

والفرح كما الترح قد يدمع

براءة ...

صباح نقص شمساً حتى استيقظت....

متعبٌ استيقظ جسد الطفلة هذا اليوم، ككل يوم، لم يتغير شيء مادي أمامها...

أثقلت حملها الخيبة، ورسم الألم حدبة الهرم على ظهرها الصغير، رسمت آمال الطفولة المرضى ابتسامة غامضة على ثغرها الفاتن، نضحت ماء الربيع على زهر وجهها الملائكي، كأنها بذلك تتحدى العتمة جلادة النور، بمنديل من ورد مخملي جففت الوجه النديّ ، ومعه ذاك الدمع الخفيّ...

كل أشيائها ترتّبت على محو آثار حزن الأمس ، وما خلفه من آثار السنين التي لم تأتي بعد، بقي صوت البوح الذي تخونه بحّة العَبرة، فما كان منها إلا أن أنشدت بصوت الشجون لحناً أضاء فرحاً ما بين المشرق والمغرب ، وغرّدت أملاً أحيا من مات ظلماً وظلاماً.

فتحت نافذة النور وفُتحت معها كل المغاليق قلوباً كانت أو ضمائر، راحت بخطى البراءة تُرتب مائدة البداية، بداية صباح، بداية عمر، أو بداية نكهة جديدة للدنيا...

ترى ما تلك الأطباق زاهية الألوان، وعلام تحتوي!!!

عجباً كيف لزهرة يانعة أن تحضّر وتنسّق كل هذه الأشياء وحدها ، أهي طاقة السعادة الكامنة داخل روحها الطاهرة السبب!!!أم أن ما خفيَ كان أسمى...

مذهلة أطباقها ومذهل ذاك الطبق الزمردي الذي حوى بداخله لفافات المحبة، كم هي لذيذة هذه الوجبة، أذكر أني تذوقتها من يدها يوماً وإلى الآن عالقة تحت ضرس القلب تلك النكهة.. نكهة المحبة..

بكل خفة تتراقص الطفلة بين مقاعد المائدة وينتقل شذاها إلى من سيملك حق الجلوس على هذه المقاعد، رتبت الأطباق وكذا الورود اليانعة ، كل مقعد له وردةٌ

خاصة كأنما تريد أن تشير إلى كل شخص بمكانته وصفته بين الورود، رائعة أنت يا طفلة...

وماذا بعد ...إلى أين تراها تبتعد! هاهي هناك في محرابها الخاص بين راحتيها كتاب الأسرار كتابها الخاص وبين أناملها البريئة قلم يحاكي رجاحة عقلها، أتراها تكتب أسماء المدعوين لمائدتها المقدسة! أم هي دعوة باسمي وهي تعلم أني أراقبها!!

هرولت سريعاً إلى حيث المائدة وفي كل خطوة قبل الوصول كانت تصل محبتها إلى قلبي أكثر وأكثر...

وضعت في منتصف الطاولة.. ورقة السر.. كأنما وضعت عماد الحياة ، وضعتها بعطف كالأم التي تضع رضيعها في اليمّ، كالأب الذي يودع ولده في مدارس العلم، وضعتها بشغف ، بحب ، ببراءة كادت أن تُمحى لولا وجودها على الأرض..

في ظل الترقب والفضول غاب عن نظري ..عاشق الطفلة.. لمحها ، وهرعت مسرعاً إلى مائدة الدنيا حيث مقاعد الكون تتسع للخليقة ، وفتحت ورقة السر كأنما أفتح كنزاً قضيت العمر في تحصيله.

وقرأت...

طفلة ...من زهرة عظيمة ...سافرت بتلات الزهرة مع ريح الصبا ، لتلد طفلة داخل كل روح، كل قلب كل ملجأ ، وفي كل المدى ، بتلات الزهرة باسم .. طفلة..

لله درّك يا طفلة الصبا..

٢

مناشدة

دُليني على الطريق، أناشد بريق البراءة في عينيكِ، دُليني ، خذيني، وعلى شرفة الرجوع اجعليني، وقيديني بسلاسل الأمل ، فإذا ماجرّتني الأيام ثانية سأحيا به إلى غير أجل...

أجل...أودّ الرجوع، فأعيديني إلى رحم الطفولة لأنهل كل فرح، وأزود عنها كل عتب، أعيديني لأرضع الحنان الذي فقدت، وأدخل بخطى أقدامي التائهة إلى جنان الصدق التي ماهرمت، أعيديني فقد هتك الحقد ستر كل الجمال، وشرد من خلفَه من رونق وألق، أعيديني واصرفي عن روحي كل لوم، فقد أرهق الجسد كثرة النّدب...

ولا تسألي...لاتسأليني لم كل هذه الآثار على وجه النعم، لاتسأليني عما خلفه التعب.

فأنا...يا أنا مرهق مشرد قد قصمت ظهري نُدف الزلل، وماكنت أنا صاحبها قسماً برب البشر، هي نُدف حملها سحاب القوة الناتج عن آثام، وُوريت عن كل نظر، وألقمت كل حساب، حملتها ولما أثقلت حملها مارأت سوى جسدي الغريب عن كل بأس، الصافي من كل زلل، وهناك حيث أنا وضعت حملها ورحلت، وللدنيا بمن فيها وزر الاسم تركت.

لاطاقة لي يا أنا على المضيّ بدوني ، رفأعيديني إلى حضن الأم التي ماولدت، وأعدك أن أبكي كثيراً كيوم بكت عيناىَ لما على الدنيا اطّلعت، أعدكِ أن أصرخ عالياً كيوم سقطت أول الخطى ولما أخف، أعيديني وامسحي برقّة بنانك عن وجهي كل النّدب، وعطري روحي بتراتيل فاهك الذي يقطر كالعسل، ومشّطي عن فكري كل حزَن كسابق الأيام عند المرايا التي أظهرت كل السبل، أعيديني وامنحيني القوة واليقين

كالذي في ديني، وكوني ركن روحي كصلاتي، وكوني القصد إذا ماضعفت إذا ماسئمت، كوني الملاذ كالحج من الآثام، أعيديني فأنت العروة الوثقى لعيشي لروحي لنفسي، التي باتت بعدك في شتات في تيه داخل عالم البشر.

حمداً لله بعد الرجاء قد عدتِّ، والروح والجسد نغماً واحداً قد جعلتي، بوحي إليّ بسؤالكِ، سؤالكِ الذي ما انفكّت عيناكِ عن قوله، بوحي وقولي عن ماذا ستسألين!

عن أرض الغربة التي استوطنت قلبي بعد الفراق! أم عن مطر الحزن الذي لم يأبه لفصلٍ ولا لشمس ولا لعذاب!

أتسألين عن الخطايا التي محت كل حُسن وكل جمال! أم عن قرابين النفاق التي قُدّمت باسم حبٍ وحقيقة وخداع!

عن الخوف الذي صدّع كل الأركان! أم عن قوة هزيلة العمران!

يا أنا...

كُفّي عن السؤال ، أخاف أن تَصلي إلى مُساءلتي، كفاني اليوم أنكِ هاهنا، كفاني أنكِ عدّتِ إليّ بعد فناءٍ في بُعدكِ عنّي

٣

رحلة على جناح عصفور**

مطرُ ذكريات لايتوقف، مطرُ عينٍ لايهدأ، ومطر نبض لايسكن.
مطرٌ مطرٌ مطر، بلا نفعٍ، أيُّ مطرٍ هذا!!ياارب الأرض.
هاهي هناك في بقعة الظلام المضاءة من فتيل برائتها، مثقلةٌ بمطر الخذلان، تترنح بين ماضٍ ومستقبل ، ولاحاضر سوى دائرة صغيرة أنهكتها، تدور بها على كل دوائر الزمان، لا لذنب فعلته، بل لأن ذيول المكر أشارت لها، حسداً كرهاً وخداعاً.
تثرثر بكلمات لاتنفكّ تنتهي منها حتى تعيدها مرة أخرى، إلى حين أتى ما ثرثرت إليه.
"عصفور سفر" من تراه يكون!!
ثم إن كان عصفورَ سفر بحق أين هي حقائب الأحلام؟ وأين متاع المتعة في السفر؟ إني لا أجد سوى جناحين مبسوطين كبساط على أرض ملكيّة، ينتظر أقدام الأميرة التي تمشي عليه ولاتدهسه، بخطوات مترنّحة أتت صاحبة الشفاه التي تثرثر بصمت، بهدوء الزهر صباح الربيع ، ركبت على جناحيّ العصفور، وبرقّة الندى على خدّ الورد أمرته بالمضيّ إلى حيث يعلمان.
طارا وحلقا بعيداً ، حيث لطالما كانت الأمنيات هناك، حيث البعد عن أقدام الواقع التي تدفن كل شيء عذبٍ غيظاً، طارت معه ووجّهت رحمة جناحيه إلى حيث أماني العيش الأول والحبّ الأول والنبض الأول، كانت توجهها بقوة ، والجناحان يطيران برجفة التردد، جاهلة هي ماذا جرى وماالذي يجري على تلك الأرض، عالمٌ هو العصفور وجناحاه ماهو مآل الوجهة هذه...إنما لامفرّ، لابدّ أن يحطّ حيث الوجهة، ولابدّ للواقعة من وقع...
حطّا هناك برعشة السكينة ، بخوف يسقيه الحلم الماضي قوة هشّة.

ومشت...

مشت بخطاها الطفلة الناعمة الحالمة، إلى حيث عيشها حبها ونبضها، ولما وصلت "ويالیتها لم تصل" قُتّلت الخطا، وهرمت الطفولة في عين الرؤى، وبدت خشونة الواقع تتأرجح أمام مُقلتيها الدامعتين حسرة خذلاناً وألماً، وهناك تخاذل الكون، ونكصت الحواس وعودها بالبوح الرقيق، وسكت الكلام وباح الصمت، غصّ الفرح وضحك الحزن، مات النبض ونبض الأسى بالحياة، هناك لما رأت مرآة حلمها قد تحقق عليها لا لها، صرخت كثيراً بلا صراخ، ونزفت كثيراً بلا جراح، آهات الألم وصلت بعيداً حدّ السماء، والكون والدنيا صمّ بكمٌ عميان لايريدون أن يفقهوا الحدث، وسقطت من ثقل الروح على روحها العذبة، سقطت كسنبلة خير خنق الشر وريد عطائها ومضى، وسقطت وسقط معها النقاء والأمان والصدق، سقطت كأنها جثة سُحلت في زمن حرّم القتل وأباح التقتيل مراراً، لم يأبه أحد حتى الذي سُمي حلمها، ولم يسمع أحد لها، سقطت وسكتت شفاهها الثرثارة، ويالیتها ماسكتت.

بلمسات أمل تتحسس الأجنحة نبض حياة فيها، ربعيون ألم ينظر العصفور إليها "الملاك المسجّى" ، وبزقزقة واعدة يتلو عليها أخبار أيام ماحصلت علّ شرايين الأمل تنبض ، علّ الحياة تسري بداخلها، وحصل...

نهضت بخطىً أُجبرت على المضيّ ولما تُجبر ، قادمة هي نحو الجناحين الرحمين بفؤاد مكلوم، روجسد محزون تمشي إليهما، تأمرهما بشفاه عاد نبض ثرثرة مرجوّة إليهما ، تقول: أن هلمّ إلى هناك إلى حيث لم نتفق ولم أحلم، إلى حيث لن أدمع ولن أسكت ، حلقا بعيداً أبعد من السماء، فوق النجوم والغيوم! لا أبعد بكثير من ذلك، فوق الشمس والقمر!

لا بل أبعد من ذلك...

٤

ليل الكلمات الخبيئة

هناك أجل...

اقترب أكثر لتعلم، واجعل السمع والبصر والفؤاد مُسجاً عند طهر محرابها.

-وماذا عسايَ أقول عندها! بل ماذا عسايَ أفعل! وعن ماذا أخبرها!!

عنّي: لما صيّرت الأرض تحت قدميها ناراً تتلوى بها كلما مني اقتربت!! أم عن حمقي: الذي غيّب الشمس وبعثر القمر وجعل السماء فوقها سقفا خانقاً!! أم عن حجارة القلب "قلبي" التي سدّت بصيرة الضمير!

أَ أخبرها عن عينايَ الخائنتين اللتين ماانفكت تحوم حول نجوم مستعارة، لاهي تضيء الدرب ولايهتدي بها الحيارى!!

أُقبّل صدق مقلتيكِ، أرشديني ماذا عسايَ أخبرها!! وأنا قد شرّدت نبضها، وحطب لناري مكري جعلت صدقها ووفاءها.

آه وألف آه..

في القلب لوعة تسألني: كيف للشيطان أن يلقى ملاكاً؟ بل كيف للملاك أن يُفتن بشيطان مثلي؟

أنا النار وشرها وهي الجنة بخيرها، فكيف التقينا!! هي الثلج النقيّ الطاهر وأنا الجمر الخبيث، رباه كيف التقينا!!

قد سكبت في قلبي ماأوتيت من نقاءٍ من براءة من نعيم من خير، كيف لم أغدو مثلها!!

وكيف لي أن أغدو مثلها!! وقد ثقب الظلام قلبي فما انسكب فيه شيئًا منها، قد جعلت في عينيها صورة وجهي وعيوني أكلت كل الوجوه ولما تلتفت لوجهها، قد زيّنت الدنيا باسمي، ورتلت الصلوات لأجلي، وجعلت لي نصيباً في قدّاس كتابها، فماذا فعلت لها!!

أقمت عرساً باسمها لكنه لم يكن لها، صيّرت قبلة القصد عنها لا لها، أحرقت المقدسات بفعلتي، هذا مافعلته لها.

كانت قد زيّنت غابات الأحلام "حلمنا" ورود أطفالاً ثماراً من جنة عطائها، أنهاراً من فيض شغفها، قصوراً من نسيج قلبها.

أودعَتها إليّ، وهبتها إليّ جعلتها باسمي، وباسم الغدر باسم القهر ليلاً أتيت بُنيان حلمها، فجعلته ريح خبثي كالصريم "كقلبي" وجعل غروري قصورها دكاً ، كأنها لم تكن كأنها لم تُبنى هاهنا.

-أ كلّ هذا فعلته بها!!

-لا...

فنار شرّي كانت تجوب ليالي نومها تنادي هل من مزيد هل من مزيد!!

فأتيتها على حين أمانٍ لي في قلبها، أخذت بيدها وشددت الوثاق فظنت أنه محال مني تركها، إلى أعالي الأحلام صعدت بها، وأضأت لها من فتيل ناري كل ظلمة في الماضي أخافتها، فحسبته نور قلبي التي رجت أنه يحبها، ولما شدت الوثاق أكثر مما شددته لها، وأدخلت نبض قلبها في قلبي الذي أملت أن يحيا بها، لما عقدت قران الصدق والوفاء بيننا...

خذلتها.....

ومن عين الآمال أسقطتها، إلى بئر مقيت سُمي باسم الآلام، انسكب الشرّ فوق الشرّ، فاحترقت بنار لطالما استعاذت من شرها.

وفقدتها...وماعدت أدري ماذا صنعت النار بها، والرماد الذي يجوب العالم والمدى ، أَهو رماد فعلي أم رمادها!!!

لكني اليوم...قد جئت بأقدام الندم، قاصداً عفوها، وهاأنا هنا عند محرابها، فماذا عساها تخبر ياترى!!!

أيقظيها..أخبريها أني هنا.

-لاحزن ولاندم اليوم ينفعك، فالسكون عمّ روحها بعدما تقطّعت حبال الصراخ من الصراخ، والصمت أدمى عيونها بعدما خان الدمع وتوارى عنها.

لكن...إن شئت صفحاً، إن شئت عفواً، اِسأل محراب برائتها، الذي اتخذته مسكناً بعدك، واسأل الجُدر التي عليها تسنّدت لما أفلتّ يدك من يدها، اِسألهم عن ليل دام على عالمها منذ فراقك إلى يومها هذا، اِسألهم عن ليل الكلمات الخبيئة...

-ليل الكلمات الخبيئة!!!

-نعم ذاك الليل الذي كانت السماء تضجّ فيه باسمكَ، والأرض ترتده، والمطر والثلج، والشمس والقمر وكل الكون يردده، كل المدى كان يردده، وكلمات شابهت السرّ كتماناً، والظلّ غموضاً، فيها مزج من شيطانيتك ، فيها ملائكية وجدانها.

-وعن ماذا تُنبئ الكلمات الخبيئة تلك!!

-من يدري...

ربما عن الفرح الذي عشت فيه لما فارقتها، وربما عن الحزن الذي أنت فيه بعدها، وربما....

عن الحال الذي جعلك اليوم هاهنا مستمسكاً بعرش نقائها هنا...عند طهر محرابها.

٥

أنتِ...

عيناكِ فتنةٌ للجمال، اِتخذت الكبرياء المعتق أناقة لوناً تتفاخر به، لوناً يجذب العيون مهما غضّت الطرف خشية فتنة، تليق جداً بكِ هذه النظرة، عجيبة جميلة عذبة هي هذه النظرة، تسحر الكون بألوان الفرح وتُلقي عليه ندفات بقاء وطمأنينة، أما عن قلبكِ فآه...يالسعادتي أني التقيت بقلبكِ، كنزٌ هو، جوهرة لامثيل لها، أنّى للكون أن يحظى بقلب كقلبكِ!

ضيق هو عن كل مالا يليق به، رحبٌ كسماء النقاء إذا ماصادف محبة وصدقاً وإخلاصاً.

لاتُغمضي عينيكِ ولاتغلقي أبواب قلبكِ ، وتعالي معي بقامتكِ التي شابهت الأطفال خفةً ونعومة، والكبار علوّاً وقدراً.

تعالي وارِ السمع قبل الكون أريد أن أُنشد، كلمات نبتت من جوف الحنجرة.

أنصتي...ياأماً حملت عني كل الهموم ولمّا تحمل بي، يا أماً غذّتني أماناً ولمّا ترضعني، أخذتِ بضعف يدي إلى قوة يدكِ بعروقها الطاهرة القوية، أخذتِ بها إلى حيث الخطى الأولى لحلمي، شددتِ يديَ إليكِ مراراً رغم كثرة سقوطي وسَقطي.

لم تملّي...وأنّى للأم أن تملّ صبراً عند خطى طفلها إذا ماصار يمشي!!

لم يكن بيننا حبل، فأتيت بحبل من الله، وجبال جروحي قد قصمتي، كنتِ ملاكاً في مرضي يترقبّ مع كل نفَس شفاء نبضي، كنتِ ملاكاً في فرحي في حزني، كنتِ تعرفين حقاً سبب دمعي.

تقولين بصوت يشبه زخات المطر طهراً:لا يُؤلمك أنكِ لستِ من دمي، كفى بقلبكِ فرحاً أنكِ سُميتِ باسم قلبي.

أماه...دمعٌ أحاط مقلتيَّ غيرة، يطلب المزيد عنكِ...

سأخبره والكونَ أنكِ آية الجمال محفوظ كالكتاب المنزل الخيرُ بكِ، أنكِ الصفاء، وأنكِ...رجاء...

رجاء لكل من في الدنيا يسأل أين تراه يكون خلّي!!

أنتِ النرجس ...إذا ماطلع الفجر على وجنتيكِ اتخذ للون الصبح بعضاً من ملامحكِ، وإذا ماأدارت الشمس طرفها إليكِ باحت روحكِ بعطر ملأ المدى راحة لعيشه وليومي.

أنتِ البنفسج...الذي أسر النظر وأطلق البوح لايملّ وصفاً إذا ماهو تحدث عن وجنتيكِ.

كيف للدنيا أن تلقى مثلكِ!!وأنتِ الجوريّ...بكل ألوان عرسه أينما حلّ كان والطمأنينة توأمان.

أنتِ الزنبق...ربيع الكون لولاكِ لهرمت الدنيا قبل أن تكبر، لولاكِ مانمت يوماً أزهار ربيعي.

أنتِ أمي...أمي التي لم تلدني.

الآن أمي: أعطني أنتِ كلتا يديكِ لأسكب فيهما الراحة، وأُودع عند خطوط التعب السلامة، لتكون لها مستقراً ومقاماً.

الآن أمي: إفتحي جيب قلبي وخذي منه كل السعادة ، هي لكِ وباسمكِ، قد جعلت لها حصناً من آيات السكينة فاطمئنّي، جلبتها من أفواه الدعاء وعيون الخشية وليل التضرع لكِ، عسى بعد اليوم ألّا تحزني.

الآن أمي: شكراً لكِ لأنكِ إليّ أنصتي...

وقبل الوداع أمي...أريد منك معروفاً أن تُلبي مطلبي...

أمي: إذا مااستمرت الغربة بقرار عقابها أن تبعد وجودكِ عني، فاعلمي أني لم أشأ يوماً إلا أن أبتدىء بنور بوجهكِ يومي، وأن أجعل صوتكِ هو آخر مأأطمئن به روحي قبل نومي.

وإذا ماضعتُ يوماً عني، خبئيني في أمان عينيكِ ، ولاتغلقي جفون الرضا على قلبي، وإذا مامتُّ يوماً فاغفري لي زللي وحُمقي، وخُذيني ببرودة جسدي إلى دفء حضنكِ، لطالما كان النوم عنده حلمي.

أمي...وقبل أن يحتل الصمت بوحي...إليّ بأحزانكِ وآلامكِ ودمعكِ، وخذي الفرح ودمعه والآمال وعيشها.

لأنكِ أنتِ...

أمي...أحبكِ.

٦

ثِقل

ملل وضجر فراش الأسى أصابه الملل أرهقه الضجر، مابالها الروح لاتملّ ركوداً لاتضجر من أكل الندم، يهزها الأسى بفراشه علّها تداوي علّتها إذا ماهي نهضت، يهزّها هزاً عنيفاً كأنما الموت يهزّ الحياة بعدما أماتها، لكنها لاتنهض....

ولن تنهض، إلا بعيون مُثقلة بهموم ونظراتِ حيرة من يأس لاينفكّ ينبض فيها فيزيدها دمعاً فوق الدمع، وثقلاً لا طاقة لها به، لن تنهض إلا بأيدٍ مبتورة محرومة من بلوغ القمر ، أيدٍ رسمت السماء فاحتلها القهر، وأثلجت الشمس نقاءً فأحرقها شعاع الحسد، لن تنهض إلا بأقدام تائهة عن المقصد، محروقة هي السبل أمام وجهتها ، فأنّى لها أن تنهض!

لكن...ثمّة ترياق إذا ماكان الموت في قلب الحياة ، دواة وريشة تسافر بها الروح على ورق الأمل، وإذا ماحطّت يوماً في غير الأرض المرجوّة، أتت ريشة العون مع الدواة الطبيبة، ليُثبتوا مكان كل عسرٍ يسراً، وعند كل دمع بسمة، وفي كل ترح فرح، وعند كل ألم نغمٌ رقيق يُنشد في جوف القلب نبضاً يُحيي كل زهر ذبل من قبل.

لاتسألوا سوف أُجيب...عن ذاك الثقل وماذا به نفعل.

هذا الثقل الذي صار سواراً حول معصم العزيمة، والذي بات عِقداً يعقّد كل الأمور البسيطة، وثوب غِلظة يشدّ إلى الأرض الإرادة ، هو تعويذة أُلقيت في روع الروح فشقّ عليها حمل صبرها، فوضعت الصبر مُقهرة واحتملت الثقل مُرغمة.

مسكين هو الثقل بقدر جبروته، وُلد من رحم قلب مكلوم يرى بلا بصيرة، ضميره أفسدته السرائر المقيتة، مُسيّر باسم مجهول لايبتغي في سبيله سوى عتاب الزلل، عتاب لايُبرئ ولايُغني من حسرة، يشبه ثرثرة الصدى لايُفهم ولا يلتفت السمع إليه،

يفضح الستر فحسب، كأنما الشمس في حضرة الليل، ليت للثقل هذا داء يفتكُ به، ليت له عدواً يُهجّره إلى غير مولده، ليت له حكماً بنَفيٍ خارج المدى، ليته يتبعثر، ليت الحساب عليه لايتعثر، لو أننا فقط نفعل به فعله بنا، لو أننا ننزعه عنا نطرده منا، لو أنه يكرهنا كما من قبل عشقنا، ليتنا نُردّ إلى يوم قبل ولادته فنحلم غير الذي وددنا أن يتحقق، ونسدّ أفواه النبض عن كل مانرغب.

لكن ماذا عسانا نفعل!!

لربما الأمر أبسط مما نقصد، لربما الأمر مجرّد جرّة قلم باسم مُبتغى ، وتلويحٌ بيد النّعم أمام كل فقد.

لربما هو أبسط من ذلك حتى، ربما إزاحة الستار عن عين النور ، عندها ربما...

يتشتت الظلام ويُقتل الظلم ويفنى الثقل...

٧

آثام

يُقدّم الحنظل على طبق من فضة ولاتحلو مرارته، يُلبس الليل رداء نورٍ ويبقى سواده، يُزين القبر بأكاليل زاهية ويبقى مقيتاً، تُفرش الأسرّة العليلة بالهنا وتبقى مريضة، وتُغلّف القسوة بوشاح من حرير وتبقى قاسية.

وكذا الآثام

تبقى ذنباً يعكّر صفو السماء، ولو تعطرت ولو سُميت باسم الندى ستبقى في ظاهرها جمال وفي باطنها المكر، حتى لو أُعطيت ثوباً ملائكياً تظلّ بطانتها شيطان مريد، ولو أُبعدت من مشرق الأرض إلى مغربها تبقى ندبة في الروح التي منها خرجت

آثامٌ ...وأيّها آثام

تهوي بالكون سبعين عمراً من العذاب، تسلخ الروح من الروح دون رفّة شفقة، تخنق الدمع وسط الحناجر، تُميت القلب طعناً بالكلام كالخناجر ، تُمرض الجسد وتقتل الطبيب، تبثّ الداء وتنفي الدواء، تطبق الظلم على المظلوم، لاتأبه للراجي ولا المكلوم وبعد كل هذا...تُغنّي بصوت المكر المزيّن بنغم حنون:هلمّوا إليَّ...هلمّوا إليَّ...

أنا لست بطاعن أنا مثلكم مطعون، تتلفظ بأبجدية كذب ورياء والكل يُصغي، والكل يُبدي أنه المحزون

لاجرم أن دائرة الآثام ستدور، والكل منها يريد أن يهرب، الكل يصيح منها كالمسعور، بكبرياء هشّ لايبالي من كان بها مفتون، من استتر بستارها المفجوع، لاناجٍ من شرها، لاالظالم ولاالمظلوم، لاالمذنب ولاصاحب القلب المصون، وكلٌّ ينادي كلّ يتبرأ، ليتني بقادر ليتني آمنت باليقين المكتوم.

آثام هي باسم الأمّ:التي أباحت حضن الحنون، للغربة، لسفه الدنيا، وضاق عند ابن حضنها ابن قلبها، حشرجة تصيبه إذا ماطرق عليه يوماً يناجي"أماه"أنا ابنك إليّ بحضنك ماهذا الجنون!!

آثام باسم الأب:الذي بدّل الخِلقة وغيّر الفطرة، فجعل السّمة هي القسوة ونزع من القلب الرأفة والرحمة، أفنى الجسد والروح ابتغاء العمل ، دفن العطاء في الأرض العقيمة، وأقام الفرح عند المقابر

آثام باسم القريب باسم الحبيب باسم الذي بات الأقرب إلى أحدهم من حبل الوريد، ثم صيّر حبل الودّ إلى سراجٍ وفتيل ، يغذيه غروراً يُشعله خداعاً ، ويقلّب الوجه والقلب كيف يشاء لا كما ينبغي له أن يكون

آثام باسم الصديق:الذي ضيّق المدى على من أسماه يوماً أعزّ رفيق، وكان كالأفعى يدسّ السمّ في خطا الأيام لايُشعر بها إلا بعد أن تصبح الوحدة هي الطريق

آثام باسم الأخوّة:التي جعلت الخيانة بدل الأخ في المكانة، وأدارت عن حوائج الشقيق الظهر، وفي ظهر الحاجة طعنت طعوناً مؤلمة

آثام باسم عقول كالحجارة الصماء، والقلوب العمياء، وبصائر مُغلّقة مهترئة، آثام باسم الضمير الذي ضَمر لما تفوق عليه بأس البشاعة

آثام باسم النفس إن ابتغت أحداً ممن سبق، إن سلمت لشيء مما ذُكر، ولّما تعلم...

أن المردّ إلى وقت غفلت عن ميعاده كل العيون، يوم تقف على قلب كل خائن سعادة المفقود، يوم يكشف الهول السرائر ويرى كلٌ شرره، يوم يصحو الباطن ولاينفعه صراخ الظنون، يوم تتبرأ الآثام ممن كان في أسرها مسجون، يوم يُجبر قلب الحُسن، يوم ينعم الفرح في خير العيون .

٨

على مقعد المحكمة

شتاء قارس جداً، باردٌ لاخير فيه ، لامطراً يغسل القلوب من دنسٍ أصابها أو علق بها، ولا ثلج يغطي بنقائه كل سواد ومَقت ، لاشيء أبداً سوى ريح عقيم تُدخل الرعب إلى العيون فتخطف منها النوم ، ريحٌ تقرع الأبواب عَدْواً ، والكل ورائها يهذي ويستعيذ من شر لابدّ منه .

حتى تلك القاعة "قاعة المحكمة" كانت باردة أكثر من الشتاء نفسه ، مظلمةٌ هي كأفئدة من تحتضنهم بداخلها ، يعبث النور فيها عسى أن يجد له فيها مقاماً ولو في تلك الزوايا المهترئة ، والصمت هو لون المكان فيها لايغيره سوى مطرقة القاضي الذي يهوي بها على آذان الحاضرين عسى أن يستفيقوا من ثباتهم اللعين .

فريقان هم كلاهما يحملان عرش الحق "حقهم" وكلاهما في يده الأخرى عصاً سحرية يشيرون بها على أفواه الشهود وآذانهم وعقولهم وقلوبهم ، عصاً يصل سحرها إلى الشهود ولا يصل إلى القاضي ، إلا إن كان قريباً من أحدهم أكثر من الآخر ، عصاً هي من الجنّ لايُعلم أهيَ مؤمنة أم كافرة ، صادقة أم كاذبة ، فاسقة أم فاجرة .

والثرثرة...لما دخلت القاعة ، اجتاحتها بثوب خيلاء تجرّه معها إلى جوفها ، كان صوت ثوبها اللاحق بها عنوةً أشبه باستغاثاتٍ لم يسمعها أحد قط ، أو ربما صُمّت الآذان عن سماعها ، وصلت الثرثرة عمق الجوف وأخفت بحضورها كل لونٍ من ألوان الصمت والسكون ، ومالبثت أن فتحت فاهاً لها لايُغلق إلا مُكرهاً ، حتى فُتحت أبواب النار والجنة هناك ، والتقى الجمر بالماء ، والتراب بالسماء ، و سُيّرت أعمدة الحق والباطل .

بينما القاعة حاضنة الغرابة على هذه الحال ، تسمّر جسدي في مكانه على مقعد المحكمة في تلك القاعة ، عندما لمست يدايَ يدُ حنان دافئة ناعمة ، غطّت البرد عنهما ، وهمست في روعي همساً عجيباً، أن اقضِ لي أرجوكِ اقضِ لي ، تشدّ بقوة رقيقة على كلتا يداي كأنما تستغيثني ، اتّسعت عيناي قلقاً ودهشة ، خوفاً من حكم ولاحكم ، كأنما أخبرتاها أني لست بقاضية فأنّى لي أن أقضيَ لكِ ، أسدلَت الجفن أن نعم ، لي علم أنكِ لستِ بقاضية إنما اقضِ لي...

بنظرات مُثقلة أشرت لها إلى حيث القاضي ، ، فعقدت بين حاجبيها الطويلين عقدة حزن وغضب طفوليين ، وعادت تكرر اقضِ لي اقضِ لي ، كان إصرارها وكل حواسها كفيلين أن أنسى أين أنا ، وأن أخرج معها من كل الجموع داخل القاعة ولانزال على المقعد ذاك .

قلت لها بصمتيَ المرتبك : ماشأنك وبما تريدينني أن أقضيَ لكِ؟ وأنا لست بقاضية!

ابتدأت ببسملة كأنما ستُلقي عليّ وصيّة ، وتنهّدت بحرقة أضفت هماً فوق الهمّ عليّ وعلى أرجاء القاعة ، وقالت: اقضِ لي في وليدٍ بيع من والديه لوالديه ، واحتلال من المكائد لأرض الأخوّة ، اقضِ لي في قاتل قتل نفسه عمداً ولم يدفنها بل أمرها أن تقتلَ غيرها ، وتتغذى على روحها ، وبمقتول قُتل مرضاً وجاء بيد الطبيب فجعلها سكينه الحاقدة تخرق جسده ، وجعل دمائه تصل إلى عيني طبيبه فاتُّهم ظلماً بقتله، اقضِ لي بحقوق اغتُصبت واتُّهمت بعُهرٍ ورجس ، وبدمع شقّ على الروح حمله ، ولّما فاض عُيّر بسوء خلق وعدم صبرٍ وقلة إيمان ، اقضِ لي بغرابيب استوطنت الكون وارتدت تاج ملَك ، اقضِ لي بردّة عن خير لازالت تحيا ، وردّة عن إثم دُفنت.

اقضِ لي...اقضِ لي...

هدأ روعها فجأة ، ولاتزال ممسكة يدايَ تنتظر مني قضاءً ، ملايين الكلمات عند باب بوحي تزاحمت تراكمت ، لست أدري أيها أُخرج أولاً ، وأيها أجعلها سلوى أيها حكماً

وأيها أأسِر ، عيناياَ علقتا في الأرض لمّا تستطع مواجهة حزن في بريق عينيها، تصلّبت يداياَ حتى باتت قاسية على رقة يديها ، لا أعلم كم من الوقت بقيت على هذا الحال ، لكني ولما أفقت وجدت القاعة قد أُخليت دونما رضىً من أحد أو سخط ، وكانت هي أيضاً تهمّ برحيلٍ يائس ، إلى أن أسعفني وحيٌ لازمني طويلاً ، فقلت لها بصوت شابه الفرح نغماً والحزن بحّة ، أن عليكِ بالمشكاة والسماء ، فتبسم وجهها الجوريّ الورديّ ، وأشارت بعينيها إلى كل القاعة فأضائت كل عتمتها ، وأشارت بيدها الرقيقة إلى مقعد المحكمة حيث أنا فصار عرشاً حملته كلمات خرجت من الفؤاد "فؤادها" مُتجنّبة زحمة الكلام .

ومضَت...

وبقيت هناك أسأل نفسي :لماذا هنا في هذا المكان؟ وعند هذا المقعد؟ ولماذا أنا؟

ولّما أردت اللحاق بها لسؤالها عما غفلت عنه أن أسأل ، كانت قد أصبحت في البعيد ، و ربما لم تذهب....

٩

ألقٌ سبّب القلق

نسمة حبٍ عبرت عين الطفولة ، أنعشتها قبّلتها وحيث كمال الجمال أخذتها ، نسمة حبٍ تخللت الأوردة وبلمسة رقّة عدّلت كل خلل ، كلّ خلل باسم حزن أو دمعة ألم ، نسمة حبٍ عتّقت النبض طُهراً أملاً ، شغفاً ونقاءً ، نسمة حبٍ ترفّعت وروح الطفولة عن كل سواد ، على براق الأحلام قصدوا السماء ، حيث اليقين حيث الرجاء حيث الرضا حيث لايضيع النداء.

نسمة حبٍ باسمكَ...

ياألقاً سبب للقلب الأرق...

منذ رأت عيناي عيناكَ ، بات البصر ساكناً يأبى أن يلتفت لأي جمال سواكَ ، وأيُّ جمال تبتغيه العين إن كانت في مُحيّاك!

منذ رأيتكَ ، باتت الوجوه تحمل صورتكَ ، وكلّ همسٍ هو صوتكَ ، وكل الأكون كأنها تثرثر باسمكَ ، كأنها ماتعلمت النطق بسواه.

منذ رأيتكَ ، سلكت البصيرة طريق الرشد طريق العمر الهنيّ طريق النجاة يابشراً.

منذ رأيتكَ ، حلّق القلب فرحاً ، طار يدعو إلى سابع سماء.

منذ رأيتكَ ، خفق النبض ، ونبضت أجنحة الأحلام بالأمل وأسرعت إليك وبين أضلاع صدقك سكنت ، وطاب المسكن جنة داخل جنّة.

منذ رأيتكَ ريشة الأيام تلوّن المدى بطيف عالمكَ ، وكتاب العمر غلافه تزيّن بحرفكَ ، أوراقه بيضٌ كأنما تُعبّر عن سبيل عيشكَ ، حبرها مجنونٌ مأمونٌ مقصده ياعُمراً.

أنت الرؤى الأولى لقلبي كأحلام الأنبياء أرجو أن تتحقق ، أرجو أن تتحقق الآمال التي ترنو إلى قلبكَ ، وتلتمس أسباب قربكَ ، وتخشى بُعدكَ كما تخشى النار أو أكثر.

إليّ بسمع نبضكَ ياعشقاً...دَين على روحكَ قد تعيّن...

دَين نبضٍ باسمكَ ترسّخ في الفؤاد ، مابرحَ يجول أعماق روحي لحظة لقائكَ ، احتويها واجعل لها مستقراً في ثنايا حبّك.

دَين ليل السهاد ، الذي أجبر العيون أن تطالع آيات لحفظكَ من كل شرٍ من كل إثم ، عنها قد يُبعدكَ.

دَين الأيام والشهور والسنين التي راحت تزور في كل نفَس عالمكَ ، تجوبه بكل مافيه ، تقبّله بكل تغيراته وفتوره ، دونما التفات لعُمر سُرق ، فكل العمر فداكَ ياحُباً.

دَين الدموع التي تهافتت في ليالي الصبابة شوقاً ، دَين حنينٍ أبى رغم الأنين سواكَ حضناً.

دَين حب ، دَين هيام ، دَين تفانٍ في زمن العقوق ، ماانفكّ يأسر نفسه في جوف قلبكَ ، ويجلد الفرح إن لم يكن بقربكَ ، ويهجر السعادة إن لم تكن منكَ ومن أجلكَ.

دَين أحاديث في الجوف باطن الحناجر وحدها تُثرثر ، دَين وحدة بين العالمين تنتظر حضوركَ.

دَين يوفّى بصدق حبكَ ، وطيب نبضكَ وطهر روحكَ.

فهل لي بوفاءٍ له!!

ياألقاً سبب للقلب الأرق!!

١٠

شوق ...

ألمٌ تشبّث بأوردة القلب ، ودمعة علِقت أسفل الحنجرة ، بوحٌ غاص عميقاً وتاه ، معصم الشوق توّاقٌ ليخطّ الرسالة ، ومعصم الفؤاد يلتفّ حوله شريان الكبرياء "غائر النبض" والخذلان المتهم يَرقب بمقلتي الحسرة ويسأل : من تُراه يلوي معصم الآخر ويَهزم!؟

الشفاه تنطق بصمت: أشتاقكَ...أشتاقكَ ، إليّ بنبض قلبكَ أسكُن فيه وأنين أشواقي ، إليّ بكلمة من شفاهك أهدّئ بها روع روحي "عاشقة روحك"

ماليدِ الحب ياحبي حيلة ، فإذا ماطاف الشوق وفاض ، غطّت مقلة الانتظار المشوب دمعة وعَبرة ، لاتأبه لنصح ولالعِبرة.

فمابالك مستمسكٌ أنت هكذا بسبيل البعد كأنما هو الصراط المستقيم! مابال روحكَ باتت كالحجارة قسوة بل هي أشدّ قسوة...

لاتزال المعركة رحاها تدور لاتبالي لشوق وكبرياء ، همّها أن تُمسك بالنصر لابصاحبه.

أخاف نعم...إنني أخاف...أخاف أن يَهلك معصم الكبرياء أمام الشوق ، أخاف أن يُهزم أمام عظمه وقوته وإخلاصه ، أخاف أن يصرع الشوق الكبرياء ويغرقه ، فأمواج الشوق إذا ما ماجت ستوصل إليكَ لامحال الرسالة ، تلك الرسالة التي خطها بمعصمه الرقيق الشديد ، رسالة تُفشي سرّي وتُخبرك كم أنا أشتاقك ، رسالة لايدري قلبي كيف سيتلقاها قلبك ، وهل ستبصر عيناكَ حروف الحب المتراقصة فرحاً بكَ؟ وهل تُراك ستأبه لبريق العشق "عشقي" الذي كُتبت فيه هذي الحروف لأجلكَ؟

أسئلة كثيرة تلوكني تكويني تؤلمني ، فالجواب عنها كغمام الصيف لايُعرف أخيرٌ حمله أم شرٌ حتى يضعه.

وماذا لو انتصر الكبرياء!؟ آهٍ لامحال حلّ العذاب وحلّ الهلاك.

كيف لي إذا ماانتصر أن أحمل وزراً فوق وزري!؟ وزر ألمٍ أرهقت به الروح توقاً إليكَ ، ووزر حب في جوفي إليكَ وُلد في زمن كل ماسوى دينه المزعوم حرام!؟

إذا ماانتصر الكبرياء سأُسجن خلف قضبان الأسى المُميت ، سأبقى أسيرة وسط مملكتك رغم هجركَ لها ، سأنادي وأشواقي باسمكَ في ظلمات الأيام "نداءً خفيّاً ، وأيدي الكبرياء تشتت صراخي ، وتُغلّق عليّ أبواب البوح وتخطف من حنجرتي كل الأغاني ، كل الأغاني التي سيقت من أوردة قلبي إلى أبواب شفاهي لأجلكَ...

لذا...بحق الله تعال إليّ ، ودع الشوق والكبرياء يتقاتلان حتى يهلكا لست أُبالي ، لست أُبالي لشيء إذا ماكنت أنتَ كل شيء..

١١

غرابة وتيه...

في متاهات العمر ، تخفض لنا الدنيا جناحيّ الرحمة ، فتنام أرواحنا بنعيم عطائها وتنسى أن قطار الترف سيقف يوماً عند محطة الهروب ، عند محطةٍ للّجوء ، وأنه في غمضة غفوة ستنزع الدنيا عنّا جناحيها ويرتدّ نعيمها على أعقابه منكراً أنه زارنا يوماً ، مُتنكّراً بغطاء الفقر والنوازل ، فتأتينا دقائق صمت ، تلك التي كنا نقفها للشهداء نفاقاً ، تأتينا بأيامٍ بساعاتٍ بسنينَ من ألم ، من نصَبٍ ، من وصَب ، فترتعش أطراف الرغبة في العيش داخل الحياة ، بعضها يُبتر ، والآخر يشلّه ثقَل الأيام ، بعضها يفنى تعباً يفنى ركضاً للبحث عن حياة داخل الحياة.

في ظلّ الهذيان هذا ، وتحت وطأة التعب المميت والفقر المقيت ، تحت رحمة الظلم ، وفي ظلال الخبايا المروّعة ، تتساقط كل الفضائل التي ظهرت أيام النعيم ، تُمحى وتَفنى كأنها لم تكن ، غراس الخير تستقي ، ومامن مغيث ، ضمائر توأد في التراب المعطّر بالعطر الخبيث ، وأوردة النقاء يصيبها الضنك ، ويضيع شذاها في الريح الشديد.

ننسى يوم الوعيد ، نسأل ونصرخ ، نناجي ونطلب ، ومامن مجيب ، مامن معين.

وأنّى يأتينا المُعين وقد نسينا ، أن لكل منّا رقيب!!

كالحميم كلٌ منا يحرق من لم يكن له قرين ، قرين شرٍ وضُرّ ، قرين ظلمٍ وجور ، قرين أكلِ سحتٍ وأكل كلّ خبيث.

أيّ تيهٍ هذا في زمن العبيد!! كلٌ يريد أن يكون ملكاً ، وهو يعبد مايريد ، يُمجّد ويقدس "يقول هل من مزيد" لكل ماهو فاتنٌ وكل ماهو ثمين ، كل الأشياء التي تَبرق ويتلألأ داخلها البصر ، فتعمى منها البصيرة ، كل الأشياء المُشتهاة ، غير آبهٍ

إلا لنفسه من الخليقة ، سواءٌ أماتَ البشر أم لم يموتوا ، سيّانٌ هو الأمر في عيون الفجع ، في بصائر الطمع ، في الضمائر المزيفة ، في الوجوه البئيسة.

يمضي التيه ويكبر مع السنين الطويلة ، وتَكبر معه لحيته "لحية كالبحر"تُخفي أصول الحقيقة ، يرتدي حجاباً يتوارى فيه عن عيون الحقيقة ، ويتلو بفاهٍ من نفاق حلوَ الحروف ، بمعانيها الشنيعة ، يمضي بأقدامٍ تحُتّ تحته قبراً ، تُهيّؤه له الأعمال المَنسيّة ، يمضي نحو الشمس بخطى الخديعة ، يمضي بثقة العمى مُنشداً النصر بالصوت الأبكم ، فلا ترى مآله إلا البصائر المعتبِرة ، ولا يسمع نهاية النشيد إلا الآذان الصماء الضعيف .

وتنتهي رحلة النصر المزيف ، لتموت كل الحظوظ المزيفة ، وتتلاشى المظاهر عن الخبث وتتعرّى ، ولا يبقى إلا الحساب ، وأيّ حساب هو ، حيث كل الصحف تُنشر ، وكل الصغائر والكبائر تُعرض، ولايخفى فيه خافية.

لتدرك الأرواح حينها أنها لم تكن يوماً في الدنيا خالدة.

١٢

رحلة غريبة المعالم واقعية الخطى....

هناك...على الضفة الأخرى من نهر التضحيات، بين أعشاب الصفصاف، التي لايُرى ملامح من استتر بها إلا بعد الاقتراب جيداً، هناك أسمع صوتاً لا يصدره غالباً إلا نقار الخشب عند غضبه، لكن هذا رقيق قليلاً، اقتربت أكثر لِألمس معرفة، وكما خُيّل إليّ، على طرف البركة"بركة الندم"جالسة هي تقضم أظافر التكبر والخديعة بطريقة جنونية، وفي راحت يدها الأخرى أربع زهرات مختلفات تشبهن إلى حدٍ كبير فصول الحب الأربع، فتلك اليانعة النضرة تشبه فصل اللقاء وغشاوة دهشته، أما الثانية اتخذت لوناً بنفسجياً ينمّ عن فصل غيرة وعشق ولهفة مجنونة، الثالثة أقساهنّ وأقبحهنّ صورة وهي بلا شك فصل الفرقة ولوعتها، أما تلك الرابعة ذات اللون الأبيض النديّ لاشك أنها ترمز للفصل الأخير فصل النصر فصل النسيان.

لكني لا أظن أن هذه الأخيرة تخصها، فعيناها اللتان تزينتا بلون الفتنة المضلّة تنظران مرآة ماء البركة، التي عكست صورتها الحقيقية، وتثرثر بكلمات شبه مجهولة، لا يُفقه منها سوى ملامة من نفسها على نفسها، نبرة صوتها كانت أشبه بصوت أنثى الغراب تلك، التي تضفي على المكان بصوتها غربة فوق الغربة"غربة فقد، غربة قلب، وغربة نفس"

يداها الصغيرتان تلقمان هدوء البركة حجراً من غيظ بين الفينة والأخرى، كأنها تلقم بركة مشاعرها التي لم تستقر على طريقة، أو أنها تلقم تقلبات قلبها ، التي بدلت سحابة صيفه إلى غمامة شتاء تمطر غدراً.

ضاقت البركة غيظاً من كثرة الغيظ، تماماً كصدرها من شدة الملامة، حتى العشب تحت قدميها ودّ لو كان جمراً حتى يبعد عن نفسه قلق خطاها الثابتة.
كالكرسي الهزاز تتأرجح هي، غضباً ، لوماً، نَوحاً وندماً.
حلّ ليل قلبها قبل غروب الشمس بوقفة، فأشعلت ناراً من بين أصابعها وأوقدت قِدراً، أصابعها تلك...كانت قبل العتمة "أنامل طفلة" مابالها الآن تحوي وصمة غدر!!!
بلا هدىً أو هدف تنتظر حرارة القِدر، والنور المنبعث من نار أوقدتها لم ينجح في إنارة ظلمات قلبها.
على حين شرود ساذج ، أكفأت على نفسها قدَر القدر، هكذا على حين قرار مترنح، تلعن القِدر وهي السبب، وتطفىء النار بلا جدوى من قلة ألم، خمدت النار، ولم يخمد لهيب الخديعة في قلبها، وكذا فتيل الندم...
بعد التعب المستحَق، غفت في ليل روحها قليلاً، إلى أن أيقظها منبه الزمن على صوت مؤذن، صوت غريب عني مألوف لها جداً، لكن ماهذا الأذان؟أ هو لصلاة على غائب، أم لحضور جنازة فقد الغياب، أم أنه لإعلام أمر عظيم؟؟
انتهى الأذان وحضرت كل جوارحها على الميقات سمعها الذي لم ينصت يوماً لنبض قلبٍ عشقها بجنون الشباب، بصرها الذي لم يبصر يوماً نعيماً كانت فيه مقيمة لما حواها قلب الشغف، عقلها الذي لم يفطن إلا بعد الممات، وكذا جوارح الندم، كلهم كانوا قد حضروا مقنعي رؤسهم .
من خلف أسوار قلب الكبرياء ظهر قمر القلب المكلوم ، ظهر كأنما ملك طلع على الدنيا فزادها هيبة فوق الهيبة، ووقاراً فوق الوقار، كان هذا الملك"ملك الحب"هو المؤذن نفسه، ولما طلع سكت الكون قليلاً ، وعمّ المدى سكوناً مريعاً، بكماء كأنما أصبحت تلك الغادرة، وصمت الألم واللوم كان في حنجرة الملك، إلى أن اخترق الصمت قوله الذي أسمع كل الآذان الصماء وقلوب الخديعة، أنْ قلعة الكبرياء هذه

خاصتي، محرمة على وجوه الزيف، وعن كل الأقنعة، وأن أسوارها من حذر متين شُيدت من عمق الألم.

جاثية هي أمام الندم بلا جدوى ، على عرش النصر هو ملك في قلعة بُنيت بأركان الحقيقة...

١٣

نقاء

الليل...لم يكن إلا في سماء العمر ، سماء تفتقر لقمر يُهتدى به، أو نجوم تؤنس وحشته، سماء بلون الغسق، وإن حصل وأشرق النور يوماً فما هي إلا دقائق ويرضخ للأفول.

والحواس...ليتها كالطبيعة يصيبها السكون، بكماء صماء هي كل الحواس، كالحجر الصوان لاتشعر بشيء...

أما الخطى...آه من الخطى...، مترنحة دوماً، لاتهدأ قلقاً وضجراًوغضباً، كأرجوحة الزمن لاتلبث أن تستكين حتى تأتيها رياح الذعر من جديد تحركها بلا هدى...

القلب...قالب حجري نبضه قسوة كما القالب أو أشد قسوة، أوردته جفاء كالذي بين الصيف والشتاء...

والحياة...لايجدر أن تسمى حياة، هو عيش مع أيام تجرّني توقظني ، تأخذني، تتوه بي ومن ثم تجدني.....

هكذا كنت قبلكِ...

قبل أن تأتيني قمراً إلى سماء العمر ، قمراً تربع جمالاً على عرش الهنا...

وأنا...ياصغيرتي، ماعدت آبه للنجوم سواء عليها أتتني أم لم تأتني...أنت الضياء والهواء ، أنت النور والرجاء، حللت بثوب الهدى ، برقّة الندى كورد الجنة، لايفنى ولايشقى...

نور نقائكِ ياقمري...أيقظ عتمة الحواس، أشعل فيها البصيرة والإنصات، أوقد بالروح كل المشاعر البتول، تلك المشاعر التي دفنت طويلاً تحت ضريح القالب الحجريّ ذاك....

قالب حجري!!!كيف له أن يبقى على حاله بعد أن لامس رقتك، بعد أن أذعن لطهرك ، ووقع أسير مملكتك...حال نقاؤك بينه وبين القسوة، وكل صور الجفاء، تدفق ندى همسك في الأوردة ربيعاً ، فصار القلب باسمك"نقاء"

لله درّك أخبريني:كيف انتشلتِ القلب من ركام الجِلفة الثقيل..ياملاكي..كيف ليدين من براعم الطفولة أن تستطيع ذلك!!

معجزة أنت...كرامة أنت..أُكرمت بها ولم أكن يوماً ولياً...

هدية من السماء، وأيُّها هدية...هدية عنوانها حياة...

بخطى الأمل الثابتة هكذا أخطو لمسيرتي، أسوق الأيام بفرح كما أبتغي...طائر أنا تربى في رغد حياتك، جناحايَ أحلام رسمت من ظل طيفك...

إنسان أنا الآن ياكون بقربها فأنصت لي واسمع...

مالي على فراقها طاقة...وإن حصل فإني لامحال سأُصرع..

أبواق الدنيا ياوردة العمر باسمك تصدح، ولاتمل تسأل وتسأل، من أنتِ وكيف السبيل لوصالك، وهل مثلك من واحد أو أكثر؟

ألم يعلموا أن الأرض قمرها واحد باسمك وحدك ياعمراً...

لكني أخبرتهم أنكِ هناك..حيث الذهب سنابل القمح المباركة، والفضة انعكاس نبع العذوبة، هناك...حيث حقول الشذى ورود زاهية...

أخبرتهم أنكِ هناك...حيث الليل يحتضن القمر، ويلون ضفائرك بلونه المفضل، والنجم يتلألأ في عينيكِ جمالاً براءةً وبريقاً تهتدي به الأفلاك والبشر، وأن الصبح نعيم حين توقظ الشمس الفرح من بين راحتيك، والعصافير ترقص فرحاً عند نوافذ قلبك النقي...

راحلون إلى حيث أنتِ يا أنا...

ظنوا أنكِ بعيدة بعد المشارق والمغارب فأكثروا الزاد والعتاد، أثقلت كاهلهم ، أتعبتهم وأقعدتهم وجعلت مسرة يومهم بألف سنة...

لو أنهم علموا ياشغف الحياة أنكِ أقرب من القلب للنبضة، ومن العقل وفكره، ومن المرء ونفسه....

لو علموا...لوجدوكِ سريعاً...سريعاً جداً.

١٤

ارتحال وطلب

عصفورة ...تجوب الدنيا فرحاً وأملاً وسعادة، تتنقل بين الطباع البشرية، ومن دنيا إلى دنيا، ناثرة عبق النقاء المحشوّ بين جناحيها، مضى على رحلتها في دنيا الناس سنين ليست بطويلة...

لم تعتد فيها على البشر ولم تتعلم من طبائعهم ، حتى أنها ملّت تلك الحياة البشرية بعدما فقدت رونقها ، فقررت المضيّ قُدماً والبحث عن عوالم إنسانية...

ذات صدفة ، وبينما هي على حال الترحال هذا، لمحت بيتاً، ليس ككل البيوت، بيتاً نوافذه من براءة ، وبابه الصغير شُكل من طفولة، أما جدرانه فكانت من طهرٍ عجيب، كأنما هذا البيت من الجنة...

فضول العصفورة جعلها تقف على حافة نافذة المنزل، لتطلّ بنظرها داخله، وكانت المفاجئة ..أنها وجدت مابحثت عنه طويلاً .

الإنسانية والبراءة .

وجدت أطفالاً ، من المرح والسعادة ، والطمأنينة والسكون، ومن طيب العيش أبَو أن يخرجوا من منزلهم الفريد هذا، أو حتى النظر من نافذته إليها، ولو حتى فضولاً ، سعادة العصفورة كانت عارمة جداً مما جعلها تنقر نقراً رقيقاً على النافذة علّ أحد الأطفال يجيؤها ، وقد حصل فعلاً، أقبلت إليها فتاة من صفاء بخطىً رقيقة وصوت عذب..

الفتاة:آهٍ ياعصفورتي ماأجملك وما أنعم ريشك العبق هذا، ماالذي أتى بك إلى هنا ، وكيف اهتديتي إلى هذا المكان!!!

العصفورة:مللت حزناً من دنيا البشر ، وضاقت بي عوالمهم المرتبكة، وخلال بحثي عن الهدوء والسكينة، وصلت هاهنا..

الفتاة:مرحباً بك وبطيب منبتك، إن شئت أن تبقي معنا فيامرحباً ، وإن شئت أن تعودي من حيث أتيتي فهذا كان خيار من قبلك ، ممن أتى ومضى...

العصفورة:لا بل أريد البقاء معكم وبقربكم ، دنياكم هي مابحثت عنها طويلاً جداً..

الفتاة "والبسمة تعلو وجهها الطفولي"تفضلي وادخلي حتى يرى البقية ، المقيم الجديد في البيت البعيد...

دخلت العصفورة المنزل بفرحٍ كبير ، كانت عيناها تُحلق في كل مكان وكل زاوية من زوايا المنزل ، ففي كل زاوية حكاية، وفي كل مكان قصة..

أخذت الفتاة تُعرف العصفورة على ساكني المنزل ، وكل من رأها قابلها بابتسامة وتحية صادقة، ولما انتهت من إلقاء التحايا، اتخذت من النافذة نفسها مكان إقامة لها، فالمكان راقها جداً

جلست العصفورة بحبٍّ وراحة، وأمعنت النظر بكل ماحولها، وفي كل زاوية من المنزل، تارة ترى أطفالاً يأكلون من الطعام ألذه ، وأخرى ترى أطفالاً يلعبون بكل فرح كأنما السعادة لعبتهم ، يلعبون بمشاكسة الطفولة الراشدة، وهناك في الزاوية البعيدة قليلاً، فتيات وجوههن كما البدر في السماء ، يتحادثن ويبتمسن ابتسامات خجولة رسمت على وجوههن رقّة الورود ، وفي زاوية أخرى أطفال يدرسون من كتاب كأنما الصحف الأولى يتلونه بصوت هادىء منصتين لما يقولون متدبرين لما بين أيديهم، وآخرون يفعلون أشياء لم تستطع معرفتها لصغر حجمها وبعد النافذه عنهم، وبينما هي على هذي الحال من التمعن ، اخترق شرودها صوت الفتاة الرقيق تلك

الفتاة"بكل حب"عصفورتي ربما متعبة أنت من طول السفر ، رتبت لك سريراً من محبة يليق بك في غرفة من صدق ، لترتاحي ويطيب لك المقام معنا.

العصفورة"بإحساس صادق"يطيب لي العيش معكم حتى لو بقيت على هذي النافذة طيلة حياتي، فقد وجدت فيكم الصدق اللؤلؤي الذي لم أجده إلا هنا، وتلمّست الحب الطاهر ، والحنين الدافىء، والأمل المُنعم، والعيش الرغيد، إني لأغبطكم على هذي الحياة الرائعة.

الفتاة:تعالي معي أوصلك سريرك وسأسرد لك حكايتنا قبل نومك، فتعلمين سبب طيب الحياة هنا.

العصفورة"بكل شغف"حسناً حسناً.

استكانت العصفورة على الفراش بطمأنينة لم تعهدها من قبل، وبابتسامة رضا كانت تنصت إلى كل حرف تحكيه الفتاة.

الفتاة:عصفورتي الجميلة...

إن كل ماترينه من صدق وحنان ومحبة ماهو إلا نقاء قلوب من ترينهم هنا ، فبعد التعب والحيرة والقلق ، وبعد القسوة والظلم والمهانة الرديئة، قرر كل من في قلبه ذرة نقاء أن يسافر بعيداً عن دنيا الناس المقيته، والهرب بنقاء روحه وطهرها إلى حيث الأمان الصافي...

العصفورة"مقاطعة"وكيف التقيتم!!!

الفتاة"بكل هدوء"قبل عدة سنوات ...نادى صوت في السماء عجيباً، أن أقبلي أيتها الأرواح النقية إلى عالمك المنشود واطمئني...

سمع الصوت كل قلوب النقاء ، وحددت الفطرة موعد اللقاء ومكانه فاهتدينا هاهنا حيث جئت أنت أيضاً...

وبحكمة خفيّة استلم كل منا مهمته وأخذ مكانه المستحق..

هنا ياعزيزتي لافرق بين كبير وصغير سوى بالعناية، وأن الجميع هنا سواء عند حضور الأشياء الجميلة، وأن الضحك والسعادة ، والعلم والحاجات المُلبّاه ، ماهي إلا عطايا ربانية...

العصفورة"والدهشة ظاهرة على ملامحها"يالا حظكم وقدركم الجميل هذا..

الفتاة"موضحة"ليس حظاً ولا قدراً ، إنما إرادة قلوب أبت أن تتلوث أو أن تستحيل لوناً رمادياً في دنيا التعب، وماكان الجزاء إلا ما رأيتِ...

العصفورة:وهل أنتم باقون هنا حتى يرث الله الأرض ومن عليها؟

الفتاة"بضحكة البراءة"إن عادوا عدنا ياعصفورتي...

أما الآن عليكِ أن تخلدي للنوم فغداً سيكون أولى أيامك هنا والكثير لترينه.

العصفورة"بكل رضا"أجل أنت على حق، تصبحين على خير يافتاة النقاء.

الفتاة"بكل لطف"تصبحين على صفاءٍ يلمّ عالمنا هذا كله، فالخير موجود هنا ياعزيزتي....

في صباح اليوم التالي أقبلت الفتاة بابتسامة وفرح حيث سرير العصفورة...

بدهشة عارمة وحزنٍ لم يشهد له القلب قبل ولادة ، تبددت البسمة والفرحة عندما لم تجد الفتاة العصفورة في سريرها ....

هرعت مسرعة تبحث عنها وصدمت لما كانت نافذة البراءة مفتوحة، علمت حينها فتاة النقاء إن العصفورة غادرتهم كغيرها ممن سبق....

وبينما هي على حال من عتب ، قرع باب الطفولة....

اجتمع كل من في منزل العجائب استغراباً أمام الباب، وبخطىً من حذر فتحت فتاة النقاء الباب....

فعمّت السعادة وجهها ومن وروائها من طيب مارأت عيونهم ، وزادت الطمأنينة طمأنينة، والأمل أملاً ، والعمر زهراً يانعاً ، وأملاً أعظم....

١٥

احتياجٌ ومُتكأ...

احتياج

أفي الحاجة الذل أم في ردّ اللئيم! أفي المدى صممٌ أم في القلب العليل! مابال بصائر الأمان قد طُمست أنوارها، وغُلقت أبوابها قهراً!

ترى إلى أين المسير! وإلى أين يؤول طريقه، ذلك القلب الكسير!إلى أين والطريق أصابه داءٌ عنيد، لايوصل إلى مقصد، ولايوقف ابتعاد القريب...

الأسير يشكو بُعداً، يأنّ وسط الحريق، ومامن مغيث ولامن مجيب، عيناه تناجي أطياف رحلت مع المغيب، روحه جاثية عند باب اللقاء القديم، والحناجر سكنها الفقر ، تتعفف عن نداء باسم الحبيب، ليله ونهاره سواء ، لانورٌ ينعشهما ولا ضوء فتيل.

لن تلد الشمس فرحاً فكون الوحدة عقيم، أشواك الفصول أنياب لاترحم، تلوي عنق الحب تبثّ السم في الصميم، لاتُكسر ولاتضعف تشحذها بالبأس قسوة السنين، ويزداد الصمت في جوف الأنين...

يثقلُ الظلم رداءه، سواد فوق السواد الكئيب، وفي السماء نجم ، وعلى الأرض زهرة النعيم، بينهما أسرٌ فاض منه كرهٌ، فاض منه طغيان عظيم، وكلاهما باسمه يعرف "باسم القلب الكسير"

حال دون ضوئه في روحها سلطة الركن العتيد، وحال دون عطرها وشغفه ، أيدٍ تعتصر غيظاً وتقهر كل جميل

أجيبوني يابني جنسي ، هل الزاد خائن المسير !!

أم أن الفرح وهب ثوبه للحزن ، ظنّاً أنه ابن السبيل!!

أجيبوني :هل على الأقدام من ذنب إن وثبت فوق حفرة الرحيل!! أم كان لزاماً عليها أن تهوي فيها كما هوَت الضمائر وتعكّر السلسبيل!

أجيبوني بشفاه صدق ، لا بكلماتٍ أصابها نسيم الزمن الذي صار فيكم العليل....

مُتكأ

لاأدري حقاً من أيّ المشاعر أبدأ وكيف لي أن أصف...

رجفة القلب التي نقلها الدم المشبع بالحب إلى اليدين فأقعدتهما عن الكتابة!! غصّة الألم التي أخرست الشفاه وأغرقت البوح في بحورٍ من ملامة !!وعقارب الوقت التي تحوم حول الروح ، تؤرقها تقتلها بلا موت ، لاهي تميتها فترتاح ولاتذهب عنها فتنجو !أم الصمت الذي يصرخ ويصرخ في كون المدى ، لكن...مامن سمعٍ مجيب ، أم عن الحناجر التي أُقّتت ، تُراها إلى أيّ يومٍ أُجلت!!

إلى يوم يسلب العقل من القلب الجنون !!أم إلى يوم تنام فيه الدموع ملىء الجفون!!

آهٍ يصرخ الوجع على مُتكأ اليقين ويسأل :لماذا بعد الوصول إلى الصبابة يُردينا الشغف اليتيم جرحى ، لاطاقة لنا على الرجوع ، لنمضي بمُتكأ أمل نحو توأمه ثانية، وتمضي الروح بمُتكأ صبر على أمل ألا يُصاب المقصد بداء الملل ، ونصل إليه بعد الأسى ، بدمع الأماني التي ماوجدته مُتكأً ، فتمرّ السنين وتصاب السعادة بالهرم ، والجنون بالتعاسة ، تصاب الطفولة بالشلل ، وتصاب الأحلام في ظلّ العيون بالرمد ، مظاهر الحياة في قلب الروح تتلاشى ، إلا الدموع...

كم هي خائنة لاتنفكّ تنفضُ عرى القوة المصطنعة ، ليتها تخون الحزن وتبحث عن مُتكأ سعادة ، ليتها لاترى بعد نور السماء نوراً ولاتبتغي سراجاً سواها ، ليتها ....

أتراها تفعل!!!أم تُراها فعلت لكن غشاوة النّوح لمّا تراه بعد!!

١٦

** ولادة **

سنابل خير من رحم الركود طلعت، وللأبواب المقدسة عند مشعر الأمان ، قربان سلام قُدمت، نشأت على إجلال لتلك الأبواب الجبارة، أبواب اختلفت ألوانها ولون الحياة داخل أجزاء أوردتها المعتقة بالكبرياء المشوب.

أحمر:كان ذلك لون أحدها، يستعر الغضب داخله دون سبب، حتى فتيل السراج بعد أن اتخذ من سعيره شعلةً "أغضبه" وينهال ظلماً على عود كبريت من لهيبه صار رماداً قبل أن يكبر، فما باله! لايطفئه السحاب الماطر جمالاً، ولاتهدئه أكاليل الندى!

وذاك المتبرج بألوان لاتدل على سعادة ولافرح، ولاتُنبئ بارتياح ولاجزع، يترنح بين الشباك الرمادية، شباك اتخذت لنفسها عند مدخله مسكناً، فعلقت عليها اللآلئ الثمينة، والأحجار الرخيصة، لاينفك يأمر الشباك أن تأسر بين خيوط مكرها النفيس والرديء، ليلقي بهم بعد أن يثقل الحمل شباكه في حفرة الشؤم، حفرة تنتهي ببئر كِبر مقيت، يغذي خشبه العفن ، فيُنبت من جديد شباك خديعة أخرى تشبهه في نبض الأوردة المريب.

أما عن هذا الذي أُشبعت شراييته نقاءً ولوناً أبيضاً يسرّ الناظرين، كان عمر خشبه قد تجاوز مئة عام من الحب والهيام، على جبين جماله وشمٌ لقلوب رقيقة المنبت والشكل، كانت قبلُ قد أثّرت في عمقه أثراً جليلاً، فحفظها ذكرى قداسة عتيقة

الطهر، كي لايمسها وباء النسيان فيذهب أثرها هباءً، ولاتقربها عيون الحسد فتُهلك ما مضى من جهدها، حفظها وردّ الجميل بالجميل ، لتُنجب شراييه البيض يوماً قلوباً يانعة تنبض بعطر خيرٍ يفوح شذاه ويملأ مدى الكون طهراً وخيراً .

وذلك الذي خالف الأبيض لوناً ونقاءً، الذي لايُرى في الظلام رغم ظلمه، الذي لايُرى إلا في الشمس الحارقة التي تحرق كل خير ومبتغى، ذلك الذي جعل سواد شراييه تبثّ الرعب في قلب كل نظر أتى إليه، قد جعل عقارب القسوة زخرفاً لكبريائه وجماله المنزوع، عقارب تلدغ كل حُسن فتميته، وكل رونق فتقتله، عقارب تدور برحى تطحن الجود وتقهره، لتقتات عليه ، علها تزيده طغياناً وظلماً، لكنه مطعم غث لما طُعن، لايسمن ولايغني من جوع، إنما يزيد السواد كحلاً، والقباحة بؤساً

ورغم هذا مازال لديه ملامح مريعة مخيفة ظاهر على إخراجها ، ليستسلم له كل شيء خوفاً ورهبة، رغم كره النظر ، رغم مقت الاقتراب.

وتلك الأبواب المتراصة جنباً إلى جنب ، والتي اتخذت ألوانا متشابهة اسماً، لكنها تختلف حقيقة ، منها الباهت الممل، و آخر رديء قد خط الزمان قبحاً عليه قبل مُضيّه، وآخر اتخذ من كليهما لوناً لكيلا يُعيّر بنقص، وآخر لايدري كيف يتوارى بينهم فاللون قد انسلخ عنه، والخشب يكاد يخرج منه، فتزمجر أوردته صوت صخب تُلهي الناظرين عن نقص كان منه.

هذي الأبواب وتلك ، كانت المستضيف لسنابل الخير ، في كل إقامة عند كل باب منها ، كانت السنابل محنية القامة الفاتنة تضع حبة حب وعطاء عند كل منهم،

وتتلو في أذن كل منها كلمات ذات أحجية، لن تفقهها الحبة حين التلاوة، لكن تدبر الأيام سيعلمها ، حبة وُضعت هكذا على هيئة السجود، دونما قصد إنما لاعتياد الرضوخ ربما، أو للالتباس بين العابد والمعبود، وضعت لتنمو مع رحلة العمر وتزهر قامتها لتنهض من ركود السجود عند إدراك معنى التلاوة التي سمعتها سابقاً، إن أرادت فقط استذكار ماسمعته، إن أرادت فقط أن تختار بنفسها أي الأبواب تزور ، أيها تضع حملَ خيرها عنده دون خوف أو خنوع، دون أن يكون الخيار في الإقامة هو الذل في السجود، عندها فقط سيولد من رحم الركود خير عظيم، ستفنى أبواب الهون، وستزهر أبواب الوفاء نوراً جديداً يدخل عمق السنابل فيجعل في سنبلة مئة حبة من نقاء وإنعام ورجاء، تبدّل الكِبر إلى كبرياء ذا عزة، وتنتزع من قامتها حدبة الذلة، وتطال بطولها الفاتن كل جميل ، وكل ماحلمت به عندما كانت في رحم الظلام، وتدرأ عن نفسها جفاف الأمل ، فسنابل النور لاتجف ولاتبس ، وتسافر بالكون حيث الكمال.

١٧

ملاكنا

نهاية الصيف، الخريف، الشتاء الطويل جداً، لكنه انتهى...

آه..أخيراً أتيت ياربيع الحياة، طالت لحية الزمن انتظاراً، والعيون غشاها الشيب دمع حزن، لكنك هنا الآن، وآن للشمس أن تستعير من ضفائرها لون النور، ولقطرات الصباح الجميل أن تتخذ من نقاء وجهها مكاناً، والزهر على عرش خديها يتربع"ملاك من رحم النقاء هي خَلقاً وخُلقاً"

كل من على وجه الأرض يتمناها"سراجاً وسط خوف العتمة، وجناح مثنى يطير نحو واقع الأحلام، " وقد كانت هكذا حقاً...

الملاك الحارس...

في كل صباح كانت تطوف بساتين الجنة السبع ، وتسقيها من نهر حنانها وحرصها، اهتماماً ورعاية، كنا نحن الفلاحين نعجز عن فعل هذا رغم أنها بساتيننا، كانت ترضع الزهور حباً فتكبر مزهوة بجمال من فيض جمالها، وتسعى بيننا حاملة زاد الطعام تطعم الجائع، وتمسح بلمسة الأم الحنون عن المتعب تعبه، فينشط كأنما لم يبدأ العمل بعد، وبرقة الصوت تُنشد للكسالى أناشيد العزيمة، فينهض الأمل والإصرار فيهم ويبدأوا من جديد ، دهشة عظيمة وفرح أعظم ، هذا هو حالنا كل يوم لما تفعله هذه الملكة"ملكة الطهر"كنا نتسائل دوماً كيف تجوب الأرض بهذه

الخفة كأنما هي ريشة السلام تزفه وتنثر عطره في كل ركن من الكون ، كيف تآخي بين المتخاصمين ، وترد الضرر عن الضعيف، بل كيف لها أن تلبي حوائج الجميع هكذا بلا تعب أو ملل ، وبدون أن تمنن على أحد مافعلته وماتفعله!!

ملاكنا...هكذا اسميناها...

في المساء تسرد علينا القصص بصوتها العذب، صغيرة هي ماكنا ندري من أين تأتينا بهذي القصص، أترها وحيٌ أم أن لها كتاب أخفيَ علينا تقرأ منه، ماكنا نحتاج للقمر في الليل فهي القمر والنجوم المؤنسة، هي كل البشر هي كأس الفرح الذي نستقي منه، هي العطاء الذي لطالما تربينا وتعلمنا من نبعه الطاهر، عند غسق الليل ، وقبل أن تغمض عيناها الفاتنتان ، بسراج المحبة تجوب الأزقة حاملة شعلة الأمن والاطمئنان ، لتوقد شمعة عند كل باب وكل نافذة ، مخبرة أن القلوب لازلت بنعيم ، لازالت تُغسل خمس مرات بماء الطهر كل يوم فلا تقلقوا، تعود إلى عرين العشق "بيتها"لتنام بسلام ، مزينة باب العرين بحمائم السلام نجوم الهدى...

أتت عالمنا هكذا على حين صدفة، لم يعلم لها من قبل سميّا ، ولم يعلم من أي أرض أتتنا، أهيَ معجزة الدنيا، أم هي من عجائبها، وهل سنعلم يوماً ياترى من تكون؟؟

هذه أسئلتنا لبعضنا في كل يوم وكل لحظة ، ورغم الأسئلة المحشوة في الرؤوس ماكنا نستطيع السؤال ، لانريد أن نحرم منها ، ولانريدها أن تبتعد

لكن لابد أن نعلم يوماً من هي وكيف جائتنا...

مرّ الربيع وأيام الصيف العادلة سريعاً ، وحضرت شمس القسوة الأيام والأزهار وكل الأشياء الجميلة، فبدلت الألوان، وأظمأت القلوب، وأصابت البصائر بالعمى، والحناجر جفت من شدة العطش ، فمااستطعنا حينها أن نناديها، وأثقل حرّ الظلم أقدامنا فما استطعنا أن نهتدي إلى عرينها، لكن لماذا لم تأتينا هي!!هل تركتنا ياترى؟؟هل تخلت عنا، أم ضاقت من أفعالنا مع بعضنا ذرعاً، !!أينك ياملاكنا، أينك!!!

غمامة الخريف غطت شمس القسوة لكنها كانت أكثر شراً منها فكل الأشياء اسودت، وكل الأماكن أظلمت، وكل الرؤوس يبست ، والأرواح تبدلت وتلبدت، لم نستطع الحراك ، كأعجاز النخل الخاوية كنا ، نأنّ ونأنّ ، كالموتى نطلب المنايا، عطشى هي القلوب ، ظمأٌ مريع يجوب الأوردة، ومامن بريق أمل، حتى الشتاء رمى بردته القاسية ، والتحف الثلج وجاب كل الأزقة...

أفل الأمل، توقف نبض الحياة ، وذبل الإصرار على العيش، ونامت العيون نومة التابوت...إلى أن أتى ذاك الصباح...صباح النعم...أجل صباح الزهوّ ، كيف لنا أن ننسى ذاك الصباح، لما استيقظت مسامعنا على صوت عصافير الأمل تنقر نوافذ العيون كي تستفيق بعد غياب، وغناء الأزهار ، وصوت النهر الذي يسبح حمداً، والأشجار التي ازينت لون العطاء، خرجنا من قواقعنا مسرعين مهطعي رؤسنا إلى من بيده تبدل كل شيء، خرجنا نبحث ونسأل كيف تبدل كل هذا وكيف تغير الحال...

أقبلت ملاكنا الغائب عنا زمناً، كانت برداء اللبوة العاشقة لكل نقاء لكل خير،

صعدت منبر الأيام وخطبت قائلة، أن الأيام العجاف مارحلت إلا لما سألت بعض الأنفس روحها أن تستقيم، ولما وبخت الأنفس أجسادها على أي نهج كانت تقيم، ولما استيأست البشر من بشر أمثالها وخلصت نجياً إلى مالك النعيم رب العالمين، أتت أيام العيش الرغيد، لكن حذارِ أن تعودوا إلى الصوامع البائسة ، بل عودوا إلى البيوت وأعمروها حباً، طاعةً ، تقرباً ، ومناجاة...

لاتسألوني من أنا ...فالجواب يكمن في بصيرة القلوب...

كانت عيوننا مغمضة ندماً لما فعلناه وفرحاً لتبدل الحال إلى النعيم، ولما عم السكون ، واختفى الصوت، فتحنا العيون فلم نجدها، ولا كيف هكذا من بين الجموع غادرتنا...

غادرتنا هي ، لكننا نعلم الآن أينها، وأنها أقرب من كل الكون إلينا، نعلم كيف نحافظ عليها أكثر من روحنا، وأنه علينا الا نغلق جفن بصائرنا ثانية وألا يغلّف مقت الضياع قلوبنا..

١٨

زهرة

يوم نقيّ بنقاء زرقة السماء، شهد ولادة الربيع في يأس الحياة، فمنحها النور وسط العتمة، وكأس عذوبة بعد ظمأ.

زهرة هي نبتت في مهد الجنة، فيه كل ماتتمنى العين أن ترى، ومايطيب للقلب والروح من رخاء وسلوى، فيه النعم التي لاتحصى، وكل شيء فيه كائنٌ قبل أن يُطلب، داخل أنسجة نعيمه، ينمو برعم النقاء، دون أن تُرى خطوط أعوامه المنصرمة، ويوم فيه...كألف عام من الرغد المُرتجى.

هكذا...

إلى الوقت الذي صار فيه البرعم زهرة تعطر الدنيا أملاً وجمالاً، وتمسح عن وجه غربتها آلاماً قد أرهقتها فتزيدها بهاءً وسعادة، تأخذ بيدها إلى حيث لاشكوى ولامشاعر ثكلى، توصلها إلى حيث النعيم والنشوى، وتمضي معها...بقساوة الأيام وجلادها، بحلاوة لحظاتها ومرارة دائها، بغموض شباك العيش وبأس عُقدها، باستقامة معابر الحياة ومكر فخاخها، تحت نار الشمس وشحّ نور القمر، وحتى في ليالي النجوم الخائنة، تمضي لاينفذ شذاها النقيّ ولاتملّ الجذور عطاءها.

أوا عجباً! كيف لعطر يانع أن يصنع صنائع المعجزة! وأنّى له أن يزيل ندبة ألم بيد قد بُترت، وكيف له أن يخلق الجمال من ملامح قد شُوهت! بل كيف استطاع عطرها ، التقاط النعم وسط الآثام، وبدّل القدر من فزع إلى أمان!

كيف وقد اجتُثت جذوره التي لم ولن تجف، وضرب عنق شغفه بمطارق من كبرياء مَقيت!! أن يوصل الكون إلى السلام!

واعجبي...تسأل الدنيا حالها بصوت الملام، تسأل وتُخرس بنفسها السؤال، عمياء هي الدنيا تأبى لغيرها أن يرى نور السماء، بكماء هي تصيب بالسحر حناجر زارها طيب الكلام، صماء لاتسمع إلا ما ألِفته من همزٍ وصراخ يحجب نداء المدى ببوق سلطان ، يهرع لصوته الإنس والجان.

بينما الدنيا على حال من التخبط ، أقبلت الزهرة إليها، غير آبهةٍ لحال الدنيا من السؤال وعدم المساءلة، وأخذت بكلتا يديها نحو مقصد الزهر بابتسامة وردية بريئة على خدها ، وتجاعيد امتعاض على ملامح روح الدنيا، ولما طلعت مفاتن نور المقصد، وصار القرب منه مقدار بسمة ورضا، خرجت سلاسل التخاذل والخذلان من جوف الحجارة الشديدة، سلاسل طلعها كأنه رؤوس الجبابرة المدلّسة، سلاسل خيبة سرعان ماانطلقت نحو يدايِ الدنيا المتواطئة ، تجرها معها من حيث خرجت، نحو عمق القسوة، وجور الكبر، نحو الظلام وظلمه، تاركةً زهرة النقاء عند عتبة المقصد، لاهي دخلته فتفرح وتنجو، ولاهي بعيدة عنه فتنساه وترنو إلى غيره بحثاً .

لم تكن الزهرة لتنتظر من الدنيا جزاءً ولاشكوراً، لم تفكر يوماً أن يردّ جميلها بجميل مثله، كانت تعطي وتمنح العطر بلا انتظار لعطر يعانقها، ولا سُقيا تحمدها، كانت تسقي الملح زمزماً لاتلتفت لأنين ظمئها، تُعطي وتُعطي مغلقة يداها عن كل ماقد يأتي من العطايا، كانت مطراً يمطر الماء كما يمطر اليابسة فالمنح عندها واحد لكل الدنيا.

أعطت هي هذا صحيح، و ماكانت تبغي سوى صدق يدٍ تمسك أحلامها ولاتفلتها أبداً، ورفقة عمر تغني عنها أيّ مسألة، وتصد عنها أي خديعة، كانت تبغي شراعاً يصد عنها ريح الشؤم ، وتوجه روحها إلى حيث صراط العيش المستقيم، كان ماأعطته أثمن مما طلبت، لكنها ورغم هذا ، لم تلق إلا ظهوراً معرضة ظنتها يوماً خير مُتكىء لرقّة غصنها، لم تجنِ سوى الغلّ في رحم الحياة ولد ويولد مع كل خطوة مشتها الدنيا مع الزهرة قبل أن تعلم أن الطريق كان نحو المقصد المنشود.

لكن...

مابال الدنيا بأشكالها بألوانها ، بكل مافيها ، على أعقابها نكصت!!!عطر الزهرة نفسه يسأل!

مامن مجيب، ومامن أحد صوته سيسمع ، فالصخب في العمق شديد ، والسكون في الروح أليم كلاهما لايُسمع.

برهـة رماديـة...بعـد حـال الجـزع والتخـاذل، يقـبلان علـى اخـتلاف لونَيهمـا ، علـى اختلاف مايحملانه من أمل وألم ، من حزن وفرح، من جمال وقبح، يقبلان وأمام بريق نقائها واقفان هما لتقـع نظراتهـا الصـافية علـى أحـدهما وتمضيَ معـه وتـدون في أفـق المدى على سطور العمر ، خبايا رحلتها ونهايتها....

١٩

بوح دنيا

جمال وبؤس، راحة وتعب، دموع شقاء ودمعة فرح، طريق شوق ، وطرق أشواك، سواد وبياض يتخلله لون رمادي يُنجي من الفناء، رفعة وذلة، مغنى ومغرم، وكثير من الأشياء المتناقضة. هذه هي الدنيا"لاتستقيم لك على طريقة" دنيا غادرة هكذا أسماها معظم البشر، فما كان من الدنيا إلا أن نادت بصوت تائه"هكذا أسموني فظلموني" قالت الدنيا هذا لاعتقادها أن مايجري للمرء في الدنيا ، بسبب ماإقترفت يداه، أو ربما قدر كتب عليه وله أن يقنع بما قسم له دون أن يرمي حمله وتعاسته على دنيا فانية. وبسبب ماسبق قررت الدنيا أن تغوص في جولة حوار مع بشر من هذا الزمان علّها توقظ فيهم حقيقتها، وتنبه عقولهم ، فيتبدل الفكر عنها. فكان أول من صادفته الدنيا، طفل قبل سن الرشد بساعات، يرقب ميعاد انتهاء طفولته، بتحسر وخوف وقلق، أقبلت عليه مقطبة الحاجبين قائلة: ويحك ياطفلاً لساعات، أتدري ماذا خطرني أول مارأيتك، خطرني قول الشاعر((إن شر الجناة في الأرض نفس تتوقى قبل الرحيل رحيلاً)) الطفل"باستغراب"ومن أنت؟!ولماذا قلت هذا بي؟ الدنيا"بتهكم"ساعات قلال على انتهاء حياة طفولتك فحسب، وعلامات الخوف والقلق والترقب خطّت على وجهك ملامح المسنّ ، ويحك ماالذي يخيفك والله ربك، يبعث لك كل يوم ضوء الشمس أملاً، ونور القمر سنداً. الطفل"بصوت حزين"وعيناه تنظر لساعة عمره: أخاف وعورة الطريق وعتمة السبيل، أخاف انهيار الأحلام وصعوبة المنال ، أخاف من عمر قد لايسعني وماأريد. الدنيا"بحكمة"انظر ياهذا إلى ساعة عمرك السابق ، هاقد مضت سنين طفولتك ، عليك الآن السير بشمس الأمل، وروح طفلٍ لاتنتهي أحلامه، فالطفولة لاتمضي من الروح إنما برقم

العمر فحسب، واعلم أن كل ماأردته بصدق ستناله حتى لو كان في قمم الجبال الوعرة، أما عمرك الذي تخافه ألا يسعك ، فاعلم أن البعض قد يعيشوا عشرون عاماً في عامين، وآخرون قد يحيَون عاماً واحداً في مئة عام. الطفل"الذي غدا شاباً منذ بضع دقائق" إذاً هل لي بوشاح الأمل هذا الذي يزين كتفيك، أرتديه وأمضي بنصحك علّي أبلغ ماأريد، فوالله قد سمعت الآن كلاماً منك لو عرفته قبلاً لعشت كل لحظة من ساعات طفولتي الأخيرة متوكلاً غير آبه. الدنيا "بابتسامة غامضة"هو لك ، امضِ حيث شئت ، لكن عليك الالتزام بما هو عليك وتجنب مانُهيت عنه. الشاب"غير منصت"إلى لقاء أيتها الناصحة المعلمة... مرت سنين الشاب وهو على منوال واحد من اللامبالاة والغرور على ماحصل عليه، ناسياً أو متناسياً النصائح الذهبية التي قُدمت له. فما كان من سنن الكون إلا أن أردته مُقعداً خاسراً بعوض ضئيل"ربما للعودة أو للأمل" أردته السنن زجراً لا عقوبة. أكملت الدنيا دورتها وعادت إليه متسائلة... مابالك أيها الشاب !!مالي أراك مُقعداً هكذا، أ هو قدر كتب عليك جسدياً، أم أن المضيّ بلا هوادة هو مافعل بك هكذا؟ الشاب"بصوت بئيس"لما أغلقت مسامع قلبي عما قلتِ لي قبل، ولما أغمضت بصيرتي عما حولي ، وأتيت مانُهيت عنه وابتعدت عما أمرت به، حصل لي ماحصل ، وأستحق... الدنيا"مواسية بحذر"هدّيء من بأسك وأخبرني ماذا عساك فاعل بعد ماحصل؟ الشاب"بألفاظ شبه واثقة" سأمضي بما أخبرتني به سابقاً علّي أجد ما أريد دون أن أنقلب على عقبيّ. الدنيا"بتفاؤل"امضِ وتوكل، وارعِ سمعك إذا يوماً ناديتك بصوت الناس ناصحة... الشاب"منصت لكل حرف"لك ذلك. مضى الشاب في حياته مرتحلاً بالنصائح محمياً بالتوكل. وراحت الدنيا تكمل دورتها بحثاً عن آخرين تحاورهم، خلال دورتها تلك لمحت في البعيد مكاناً لعظم نوره استرعى انتباهها ولروعة رائحة عطره العبقة شدّها إليه رغم بعده، مشت الدنيا إلى حيث ذاك المكان ، ولما وصلته، ملأت عيناها وجه كما القمر في ليلة البدر بل أجمل، ورقة كالورد لا بل

أكثر"فتاة النقاء"هكذا اسمتها الدنيا لتلك الفتاة لما رأتها. أقبلت الدنيا إليها وبصوت يشابه رقتها خاطبتها:فتاتي الفاتنة، أينك من دنيا الناس، لم أراك قبلاً ولولا روعة المكان هذا لما رأيتك الآن. الفتاة"بصوت يكاد يكون غير موجود" إني لآخاف دنيا الناس هذي ، وإنه ليحزنني ما آلوا إليه من أمور. الدنيا"متسائلة"مالذي يخيفك، ومالذي آلَ إليه البشر؟ الفتاة"بصوت خافت وواضح"أخاف عند وقوع عيونهم في عينيّ، لأني لا أراهم إلا وحوشاً تخذل وتفتك بلا رحمة، وأحزنني حقاً أن دنياهم تحولت إلى بشرية بحتة ، نسيت أو تناست معنى الأنسانية. الدنا"مقاطعة" أوَ تحسبين أن فعلك هذا هو الصواب، أعتبر حقاً أن ابتعادك أنانية. الفتاة"بعيون متسائلة"لم!! الدنيا:أنت من عليها الخوض في دنيا الناس ، مهمتك زرع بذور نقاء قد جفت غراسه وماتت، وظيفتك إنعاش قلوب أماتتها القسوة اللعينة ، وجهك وقلبك ، روحك وخُلقك ، كل أولئك أنت عنه مسؤولة. لم يؤتكِ الله هذي النعم من جمال ونقاء وعذوبة، إلا حتى تنشريها زهوراً في دنيا الناس التي غدت غابة من السواد المظلم، امضِ بما أنت عليه وخذي معك نبال القوة والشجاعة والإصرار واضربي بها كل ماقد يخيفك. الفتاة"بصوت واثق لم تسمعه هي نفسها من قبل"محقة أنت بما قلت ، سأمضي حيث أُمرت ، فالتخلف وراء الجدران لن يفيدني شيئا حتى لو كانت من ذهب وممزوجة بالمسك، وانتظار أمثالي أن يأتوني لن يفيدني شيئاً فقطار القدوم تعطل منذ زمن. الدنيا"بكل فرح"امضِ متوكلة واجعلي نقائك في صدفة من طهر ، وخلقك وروحك اجعليهما مثلاً كما في الكتاب المنزل. الفتاة"بثقة وتوكل"لك ذلك. الدنيا"منبهة"أغلقي مسامعك عن كل ماقد يريبك ، وإياكي ثم إياكي أن تغلقي يوماً بصيرتك. الفتاة"بلهجة الصدق"لاتقلقي ...إن معي ربي سيهدين. غادرت الدنيا مكان الفتاة واثقة منها ، وغادرت كذلك كل الأمكنة، متجهةً إلى مكان آخر ذي مكانة ، وقفت فيه منادية: يابشر الزمان إليّ بأسماعكم أنصتوا، إليّ بنور قلوبكم يابشراً أودّ لو تعودوا إنسان.

وأذنت فيهم قائلة:اعلموا أن الحزن ليس سبباً مني وكذا الفرح، وأن ما أحزنك ماكلن ليصيبك إلا بما اقترفته يداك، أو تحضيراً ربانياً لموكب فرح قادم، وأن الحزن أكثر مما ينبغي يغشي القلب قبل العيون، واحذروا تعاظم الأمور"كالفراق مثلاً"

لاتعظموا حزنه إن فرق بشر أو قدر بين حبيبين ، فالفراق ألوانه قاتمة عديدة، كفراق الوطن والأرض ، وفراق طفل صدر أمه الميته وهو بأمس حاجته لها، كفراق القلوب العزيزة على الروح مثلاً، ولاتجعلوا غيوم التشاؤم ستاراً على شمس الأمل، فالبؤس لابد زائل، والدمع الحزين لابد راحل، وزهر العمر لايذبل مادام في الروح نقاء وأمل...